

**الملك النجار**



# الملك النجار

تأليف  
كامل كيلاني



الملك النجار

كامل كيلاني

رقم إيداع ٢٠١٣/٧٨٨٧

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٧١٩ ٢٧٩ ٨

**مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة**

جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٠١٢/٨/٢٦

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره  
وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة

جمهورية مصر العربية

تلفيفون: +٢٠٢ ٢٢٧٠٦٢٥٢      فاكس: +٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: <http://www.hindawi.org>

---

رسم الغلاف: ورود الصاوي.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي  
للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية  
العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2013 Hindawi

Foundation for Education and Culture.

All other rights related to this work are in the public domain.

# المحتويات

|    |              |
|----|--------------|
| ٧  | مقدمة        |
| ٩  | الفصل الأول  |
| ١٥ | الفصل الثاني |
| ٢٣ | إلمامة       |



## مقدمة

### بِقَلْمِ كَامِلِ كِيلَانِي

أَيُّهَا الصَّبِيُّ الْعَزِيزُ:

تَرَجَّمْتُ لَكَ هَذِهِ الْقِصَّةَ التَّمَثِيلِيَّةَ الْبَارِعَةَ مُنْذُ خَمْسَةَ عَشَرَ عَامًا — أَوْ تَزِيدُ — أَيْ قَبْلَ وِلَادَتِكَ بِعَامَيْنِ، أَوْ ثَلَاثَةَ، ثُمَّ شَغَلَتِنِي عَوَادِي الزَّمْنِ وَمَشَاغِلُهُ الْكَثِيرَةُ، عَنْ تَقْدِيمِهَا إِلَيْكَ فِي حُلَّةٍ قَشِيشَةٍ، تَهُشُّ بِهَا نَفْسُكَ، وَيَطْرَبُ لَهَا فُؤَادُكَ.

وَلَقَدْ سَأَلْتَنِي — مُنْذُ أَسَابِيعَ — أَنْ أُزُوِّدَكَ بِقِصَّةٍ تَمَثِيلِيَّةٍ، تَشَرِّكُ فِي تَمَثِيلِهَا مَعَ أَخْدِينَكَ وَلِدَاتِكَ — مِنَ الْطُّلُّابِ وَالطَّالِبَاتِ — فَذَكَرْتُنِي بِهَذِهِ الْقِصَّةِ، وَمَا كُنْتُ لَهَا نَاسِيًّا. وَهَانَذَا أَفْدَمْهَا إِلَيْكَ، مُفْتَحًا بِهَا الْمَجْمُوعَةَ الْجَدِيدَةَ، تَحْقِيقًا لِرَغْبَتِكَ، وَتَوْحِيًّا لِفَائِدَتِكَ.

وَسَرَرَى — فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ التَّمَثِيلِيَّةِ الْجَمِيلَةِ — مِنَ الْعِبَرِ وَالْعِظَاتِ السَّامِيَّةِ مَا يَحْفَرُ هَمَّتَكَ إِلَى دَرْكِ الْعَظَائِمِ، وَيُلْهِبُ فِي نَفْسِكَ حُبَّ الْوَطَنِ الَّذِي يَنُوطُ بِكَ أَكْبَرَ الْأَمَالِ، وَيَرْتَقِبُ مِنْكَ أَجَلَ الْأَعْمَالِ.



## الفصل الأول

(منظر «بطرس» الأكبر: منشئ «روسيا» الحديثة، وهو في مصنع «هولندا»، بملابس النجارين).

بطرس: لقد مرّ العام، ووجَبَ عَلَيَّ الْكَنْ مُغادِرَةً هَذَا الْمَكَانِ! شَدَّ مَا أَصْبَحَتْ مُؤْتَسِّا  
بِهِذِهِ الرُّوْقَةِ الْمُخْلِصَةِ، كِلَّفَاهُؤُلَاءِ الْقَوْمِ السُّدُّجَ، لَا سِيمَّا صَدِيقِي «مِيكَائِيل»، ذَلِكَ الرَّفِيقُ  
الْأَمِينُ، الَّذِي لَا أُطِيقُ فِرَاقَهُ!

مِيكَائِيل (داخلاً): مَرْحَبًا بك يا بُطْرُس! آه! أَلَا تَزَالُ هُنَا؟ مَاذَا تَقُولُ يَا بُطْرُس؟  
خَبْرِي: أَيُّ حِدِيثٍ كُنْتُ تُحدِثُ بِهِ نَفْسَكَ الْآن؟ فَقَدْ سَمِعْتُكَ تَتَكَلَّمُ وَأَنَا أَقْتَرُبُ مِنْكَ! فَأَيُّ  
مُهِمٌ يُشَغِّلُكَ؟

بطرس: حَيْرًا يا زَمِيلِي! فَلَيْسَ يَشْغُلُنِي إِلَّا السَّفَرُ؛ أَلَا تَعْلَمُ – يَا أَخِي – أَنَّنِي عَلَى  
أَهْبَةِ الرَّاحِيلِ عَنْ هَذِهِ الْبَلَادِ؟

مِيكَائِيل: آه! أَجَادَ أَنْتَ فِيمَا تُحدِثُنِي بِهِ؟! أَيُّ حَيْرٌ هَذَا؟ أَتَتْرُكُ «سِرَادَم»؟ أَصَحِحُّ  
أَنَّكَ تَعْتَزِّمُ فِرَاقَنَا؟ مَاذَا تَقُولُ؟ إِلَى أَيِّنَ تَقْصِدُ يَا بُطْرُس؟

بطرس: إِلَى وَطَنِي، بِلْ وَطَنِنَا مَعًا – إِنْ شِئْتَ – فَإِنْتَ تَعْرِفُ – فِيمَا أَعْلَمُ – أَنَّنِي  
قَدِمْتُ مِنْ «رُوسِيَا»، كَمَا قَدِمْتَ أَنْتَ، لِأَتَلَمَ صِنَاعَةَ السُّفْنِ، وَالْآن – يَا صَاحِبِي – قَدْ  
حَانَ وَقْتُ الْعَوْدَةِ إِلَى الْوَطَنِ بَعْدَ أَنْ اغْتَرَبْتُ عَنْهُ سَنَةً كَامِلَةً!

مِيكَائِيل: أَلَيْسَ لَكَ بُدُّ مِنَ الرَّاحِيلِ؟ أَلَا سَبِيلَ إِلَى عُدُولِكَ عَنْ هَذِهِ الْفَكْرَةِ الْمُزْعَجَةِ؟  
شَدَّ مَا يَحْزُنُ مُعَلَّمَنَا أَنْ تُفَارِقَنَا وَتَتْرُكَ جَمَاعَتَنَا! فَهُوَ كَثِيرًا مَا أَنْتَ عَلَيْكَ، وَنَوَّهَ بِحُسْنِ  
خِلَالِكَ، وَحَمِدَ لَكَ نَشَاطَكَ وَمُتَابَرَتَكَ عَلَى عَمَلِكَ، وَاتَّرَكَ عَلَى جَمِيعِ الرِّفَاقِ بِلْطَفِيهِ وَمَوْدَتِهِ.

وَقَدْ أُوصَانَا – جَمِيعًا – أَن نَتَّخِذَ مِنْكَ نَمْوَذْجًا صَالِحًا، وَمِثَالًا طَيِّبًا لِلعامِلِ الْمُجَدِّدِ  
الْمُخْلِصِ فِي عَمَلِهِ.

**بطرس:** ما أَسْعَدَنِي بِهذا الثَّناءِ! وَمَا أَشَدَّ فَرْحَتي إِذْ أَتَرُكُ بَعْدِي أَحْسَنَ ذِكْرِي وأَطْيَبَ  
أَحْدُوْثَةَ بَيْنَكُمْ! وَلِكُنْ خَبْرُنِي فِي صِرَاطِهِ وَصَدْقَهِ: أَلِيْسَ يَسِّرُكُمْ – مَعْشَرَ الرِّفَاقِ – أَن  
يَرْحَلَ عَنْكُمْ مُنَافِسٌ مِثْلِي، حَتَّى لا يَحْظَى بِالْفَوْقِ عَلَيْكُمْ، فَيَسْتَأْثِرُ بِالثَّناءِ دُونَكُمْ؟

**ميكانيل:** كَلَّا يا بطرس، فَإِنَّا – جَمِيعًا – شَدِيدُو الْإعْجَابِ بِكَ لِدِمَاثَةِ أَخْلَاقِكَ،  
وَبِرَاعَةِ حِدِيثِكَ، وَجَمِيلِ شَمَائِيلِكَ. وَلَسْتُ أَكْتُمُكَ أَنَّ حُرْنِي لِفِرَاقِكَ حُرْنٌ طَوِيلٌ، وَمَا أَشَدَّ  
وَحْشَتِي حِينَ اتَّلَفْتُ – يَمْنَةً وَيَسْرَةً – فَلَا أَرَاكَ بَيْنَنَا ... لَقَدْ مَرَّتْ بِنَا هَذِهِ الْأَيَّامُ كَانَّهَا  
– لِيَقْصِرُهَا – سَاعَاتٌ، حَتَّى حَسِبْنَاهَا حُلْمًا جَمِيلًا، تَرَكَ فِي نُفُوسِنَا أَطْيَبَ الْأَثَرِ، وَأَحْمَدَ  
الْذِكْرِيَّاتِ! وَلَسْتُ أَكْتُمُكَ – يا صَاحِبِي – أَنَّنِي قَدْ أَصْبَحْتُ لَا أُطِيقُ فِرَاقَكَ، وَلَا أَدْرِي  
كَيْفَ أَحْتَمِلُ هَذَا النَّبَأَ الْأَلِيمَ؟

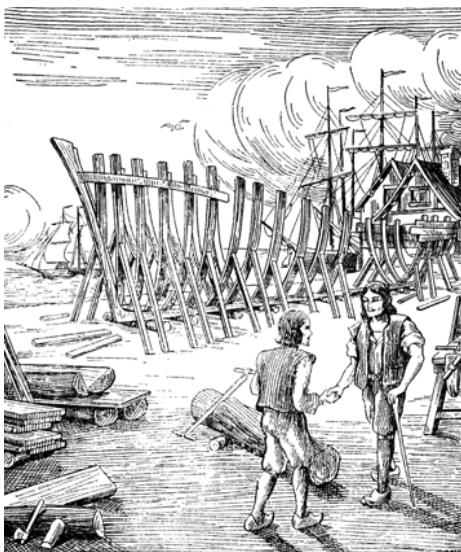
**بطرس:** أَنْتَ إِنَّمَا تُعْبِرُ عَنْ شُعُورِي أَصْدِقَ تَعْبِيرِي، فَلَسْتُ أَدْرِي كَيْفَ أُفَارِقُكَ يَا  
عَزِيزِي؟ وَلِكُنْ لِمَاذَا نَفَرَقْتُ أَيْهَا الصَّدِيقِ الْوَفِيِّ الْأَمِينِ؟ خَبْرُنِي: لِمَاذَا يَدْعُونَكَ  
إِلَى الْبَقَاءِ فِي هَذَا الْبَلَدِ؟ وَمَا بِالْكُلِّ لَا تَعْوُدُ مَعِي إِلَى الْوَطَنِ؟ أَلِيْسَ فِي وَطَنِكَ أَحَدٌ يَسِّرُكَ أَنْ  
تَرَاهُ؟ أَلَا تَشْعُرُ بِحَنِينٍ إِلَى بَلَدِكَ الَّذِي نَشَأْتُ فِيهِ، وَنَعْمَتْ بِحَمَالِهِ، وَامْتَلَأْتُ نَفْسُكَ بِحُبِّهِ؟

**ميكانيل:** حَبِيبٌ إِلَى نَفْسِي أَنْ يَتَحَقَّقَ هَذَا الْأَمْلُ الْمُنْتَشُورُ، فَإِنِّي لَشَدِيدُ الْحَنِينِ إِلَى  
ذَلِكَ الْبَلَدِ الْكَرِيمِ، وَمَا أَسْعَدَنِي بِلِقَاءِ أُمِّيِّ الْعَجُوزِ الْمِسْكِينَةِ، الَّتِي تَذَوْبُ شَوْفًا إِلَى رُؤْيَتِي،  
وَتَتَمَّنِي لِقْيَايَ بِفَارِغِ الصَّبَرِ! وَمَا زِلْتُ أَذْكُرُ حُرْنَ خَطْبِي عَلَى فِرَاقِي، وَأَلَمَّهَا فِي غُرْبَتِي  
الْطَّوِيلَةِ ... وَلِكُنْ قَضَاءُ اللهِ لَا سَبِيلٌ إِلَى مُدَافِعَتِهِ، وَلَا بَدَّ مِنَ الإِذْعَانِ لَهُ، وَالرَّضَى بِهِ، وَمَا  
زِلْتُ أَكْرَرُ عَلَيْكَ السُّؤَالَ: لِمَاذَا أَرْمَعْتَ فِرَاقَنَا أَيْهَا الصَّدِيقُ الْعَزِيزُ؟

**بطرس:** لَأَنَّ عَلَيَّ واجِباتٌ وَفُروضًا تَحْتَمُ عَلَيَّ الرُّجُوعَ إِلَى الْوَطَنِ الْآنِ، وَلَا سَبِيلٌ إِلَى  
الْتَّهَاوُنِ فِي أَدَائِهَا، وَمِثْكَ مَنْ يُقَدِّرُ نِدَاءَ الْوَطَنِ، وَيَرَى أَنَّ الْوَاجِبَ الْوَطَنِيَّ هُوَ الْمُهِمُّينُ  
عَلَى كُلِّ رَجُلٍ حَقِيقٍ بِوَصْفِ الرُّجُولَةِ!

**ميكانيل:** نَعَمْ! هَكَذَا يَقُولُ الْمُصْلِحُونَ!

## الفصل الأول



بطرس الأَكْبَرُ وَهُوَ بِمَلَابِسِ النَّجَارِينَ فِي سَاحَةِ بَنَاءِ السَّفَنِ عَلَى السَّاحِلِ، وَإِلَى جَانِبِهِ صَدِيقُهِ مِيكَائِيلُ سَتَمْتَرُ النَّجَارُ، وَهُمَا يَتَحَدَّثَانِ.

بطرس: بلْ هَكُذا يَقُولُ كُلُّ رَجُلٍ شُجَاعٌ الْقَلْبِ، طَاهِرٌ الضَّمِيرِ، يَبْذِنُ الْأُمُورَ بِمِيزَانِ الْمَنْطَقِ وَالْعُقْلِ، وَمَا أُرَاكَ إِلَّا كَذَلِكَ، وَيَلْوُخُ لِي أَنَّكَ غَيْرُ مُضْطَرٌ إِلَى الرُّجُوعِ لِوَطَنِكَ، فَلَيْسَ عَلَيْكَ – فِيمَا أَظُنُّ – وَاجِبٌ حَتَّمُ أَدَاؤُهُ الْآنَ.

فَوَدَّاًكَمَا أَيُّهَا الصَّدِيقُ!

مِيكَائِيلُ: تَمَهَّلْ يَا بَطْرُسُ ... أَنَاً يَا صَاحِبِي! ... فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَتَحَدَّثَ إِلَيْكَ قَبْلَ أَنْ نَفْتَرَقَ.

بطرس: حَدَّثْنِي بِمَا تَشَاءُ.

مِيكَائِيلُ: لَسْتُ أَكْتُمُكَ أَنَّ نَفْسِي تُحَدَّثُنِي بِالْإِقْدَامِ عَلَى مُجَاهَرَتِكَ بِسَرِّي، وَالْإِفْضَاءِ إِلَيْكَ بِدِخْلَةِ نَفْسِي.

**بطرس: لا تُحدّثني بِسْرُك إذا كانَ في هَذَا السُّرِّ ما يَشِينُك!**

**ميكانيل: كَلَّا، كَلَّا يا بطرسُ، ليسَ فِي حَدِيثِي مَا يَشِينُ، وَلَكِنْ فِيهِ مَا يُظْهِرُكَ عَلَى سُرِّ حَوْفِي مِنَ الْعَوْدَةِ إِلَى وَطَنِي الْحَبِيبِ إِلَى نَفْسِي؛ لَقَدْ وُلِدْتُ فِي «موسُوكو» ...!**

**بطرس: حَسَنًا، لَيْسَ فِي هَذَا مَا يَشِينُ، وَلَا إِثْمٌ عَلَيْكَ أَنْ وُلِدْتَ فِي «موسُوكو» ... وهُبْ فِي ذَلِكِ إِثْمًا تَحرَّجُ مِنْهُ، فَلَيْسَ هَذَا خَطاًكَ يَا صَاحِبِي!**

**ميكانيل: كَلَّا! لَيْسَ هَذَا مَا أَعْنِيهِ يَا بطرس، فَأَعْزِرْنِي سَمْعَكَ لِتَتَعَرَّفَ جَلِيلَةَ الْخَبْرِ؛ لَقَدْ حَلَّتِ فِرْقَةُ مِنَ الْجُنُدِ بِالْقُرْبِ مِنْ كَوْخِ أُمِّي، وَحَانَتِ مِنْ ضَابِطِ الْفِرْقَةِ الْأَفْقَاتُهُ - لِسُوءِ حَظِّي - فَرَأَنِي قَرِيبًا مِنْهُ، وَمَا إِنْ أَبْصَرْنِي حَتَّى أَمْرَنِي بِالانتِظَارِ فِي سِلْكِ الْجُنُدِيَّةِ، وَفَقَاءِ لِإِرَادَةِ الْقَيْصِرِ، وَتَحْقِيقًا لِرِغْبَتِهِ ... وَلَسْتُ أُطْيَلُ عَلَيْكَ، فَمَا أَسْرَعَ مَا أَرْغَمَنِي ذَلِكَ الضَّابِطُ عَلَى تَلْبِيةِ أَمْرِهِ؛ فَقَدْ وَضَعَ عَلَى كَتْفِي بُندِقِيَّةً، وَأَمْرَنِي بِالسَّيْرِ مَعْهُمْ، وَكَانَ عَدُوُّهُمْ ثَمَانِينَ.**

**بطرس: وَمَوْجِزُ القَوْلِ أَنَّهُ قَيَّدَ اسْمَكَ فِي دَفْتِرِ الْجُنُدِيَّةِ ...**

**ميكانيل: أَغْلَبُ الظُّنُونِ أَنَّهُ قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ ... وَلَكِنَّنِي لَمْ أَفْطُنْ - حِينَئِذٍ - لِحَقِيقَةِ الْأَمْرِ.**

**بطرس: مَا أَعْجَبَ مَا تَقُولُ! لَقَدْ حَدَّثْتَنِي أَنَّ الضَّابِطَ قدْ سَجَّلَ اسْمَكَ فِي عِدَادِ جُنُودِ الْقَيْصِرِ، فَكِيفَ أُتَيحَ لَكَ أَنْ تَحْيِءَ إِلَى هَذَا الْبَلَدِ؟**

**ميكانيل: لَقَدْ أَذْرَكْتَ الْآنَ حَقِيقَةَ أَمْرِي، وَعَرَفْتَ سُرِّي! عَلَى أَنْتِي أُؤْكِدُ لَكَ أَنْ قَيْصَرَنَا قَدِ ارْتَكَبَ خَطَاً عَظِيمًا؛ إِذْ أَرْغَمَنِي عَلَى أَنْ أَكُونَ مِنْ جُنُودِهِ، وَلَسْتُ أَكْذِبُكَ إِذَا قُلْتُ لَكَ: إِنِّي لَسْتُ بِالرَّجُلِ الَّذِي يَنْجَحُ فِي هَذَا الْمِضْمَارِ، وَلَقَدْ حَاوَلْتُ أَنْ أُوَطِّنَ نَفْسِي عَلَى هَذَا الْعَمَلِ؛ فَلَمْ أَفْلُحْ فِيهِ، وَرَأَيْتُهُ لَا يُلْأِئُنِي بِحَالٍ مَا، وَقَدْ كَانَ مِنْ نَتَائِجِ هَذَا الْخَطَا أَنَّنِي اضْطُرِرْتُ إِلَى مُفَارِقَةِ أُمِّي الْمِسْكِينَةِ، وَخَطْبِي «كَتْرِينَ» الْجَمِيلَةِ، وَوَطَّنْتُ نَفْسِي عَلَى احْتِمَالِ الْآلامِ الشَّدِيدِ، وَالصَّبَرِ عَلَى الصَّرَبَاتِ الْمُؤْلِمَةِ، وَسَمَاعِ الْكَلَمَاتِ الْمُغْبِسِيَّةِ ... حَتَّى جَاءَ شَهْرُ «دِيسمِبر» ... وَفِي ذَاتِ لِيَلَةٍ مِنْ لَيَالِيهِ الْقَرَّةِ دُعِيَتُ لِلْحِرَاسَةِ فِي السَّاعَةِ التَّالِثَةِ صَبَاحًا، وَكَانَتِ التَّلُوْجُ تُغَطِّي الْأَرْضَ بِغَطَاءِ غَلِيظٍ؛ فَاضْطُرِرْتُ إِلَى الْمَشِيِّ، حَتَّى لَا يَجْمُدَ الدَّمُ فِي عُروقِي ... فَهُلْ تُصَدِّقُ أَنَّنِي وَجَدْتُنِي - بَعْدَ سَاعَاتٍ - قَدْ أَصْبَحْتُ عَلَى مَسَافَةِ خَمْسَةِ فَرَاسَخَ، بَعِيدًا عَنْ مُقَدَّمَةِ الْجَيْشِ؟**

**بطرس: أَتَعْنِي أَنَّكَ قَدْ فَرَزْتَ مِنَ الْجُنْدِيَّةِ؟**

**ميكانيل:** أَيْسَمَّى ذَلِكَ فِرَارًا مِنَ الْجُنْدِيَّةِ؟ شَدَّ مَا يُزْعِجُنِي أَنْ أُفْكِرَ فِي هَذِهِ الْحَقِيقَةِ! إِنَّهَا تَسْتَثِيرُ مَخَافِي، وَتُزْعِجُنِي إِزْعاجًا لَا قِبَلَ لِي بِالْحِتْمَالِهِ.

**بطرس:** أَلَا تَعْلَمُ — أَيُّهَا الرَّفِيقُ الْكَرِيمُ — أَنْ كُنْتَ تُقْتَلُ رَمِيًّا بِالرَّاصِصِ إِذَا اهْتَدَى أَحَدٌ إِلَى مَقْرَبِكَ؟

**ميكانيل:** لَقَدْ امْتَلَأْتُ نَفْسِي بِهَذِهِ الْفَكْرَةِ، وَعَاوَدْتُنِي مَرَاتٍ عَدَّةً؛ وَلَكِنَّنِي تَنَاسَيْتُهَا عَامِدًا، وَرَأَيْتُ مِنَ الْحِكْمَةِ وَأَصَالَةِ الرَّأْيِ أَنْ أَوْاصلَ سَيْرِي مُبْتَدِعًا عَنْ مَقْرَبِ الْجَبِيشِ، وَنَمَّةً ظَالِلْتُ أَتَابُ السَّيْرَ، حَتَّى وَصَلَّتْ إِلَى «سَرْدَام» ... وَهَانَدَا — كَمَا تَرَانِي — أَمِنًا مُطْمَئِنًا فِي هَذَا الْبَلْدِ ... وَالآن — وَقَدْ أَفْضَيْتُ إِلَيْكَ بِدِخْلَتِي — يُخَيِّلُ إِلَيَّ أَنَّنِي أَسْتَطِيعُ الْوُثُوقِ بِكَ، وَالْتَّعْوِيلِ عَلَيْكَ، وَمَنْ يَدْرِي؟ فَلَعِلَّكَ أَنْتَ نَفْسَكَ واقِعٌ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَازِيقِ الَّذِي وَقَعْتُ أَنَا فِيهِ ...

**بطرس: أَتَعْنِينِي؟ ... أَتَظَلَّنِي هَارِبًا مِنَ الْجُنْدِيَّةِ؟ ... يَا لِلْبَلَاهِ وَالسُّخْفِ!**

**ميكانيل:** لَا عَلَيْكَ يَا أَخِي! وَمَا أَظْنُكَ إِلَّا مُتْجَاوِزاً عَنْ هَفْوَتِي، فَمَا قَصَدْتُ إِلَى إِسَاءَتِكَ قَطُّ ... عَلَى أَنَّنِي أَشْعُرُ دَائِمًا أَنَّ أَسْرَارًا غَرِيبَةً تَكْتَنِفُكَ يَا بُطْرُسُ، وَمَهْمَا يُكَنِّ مِنْ أَمْرٍ، فَإِنَّكَ مُحْتَفَظٌ بِسِرِّي — بِلَا شَكٍ — حِينَ نَعُودُ إِلَى بَلْدِكَ، فَأَنْتَ أَعْرَفُ بِخَطَرِ مَا أَفْضَيْتُ بِهِ إِلَيْكَ، وَلَوْ عَلِمَ أَحَدٌ مِنْ أَتَابِعِ الْمَلِكِ أَوْ تُوَافِيهِ شَيْئًا مِنْ أَمْرِي، لَمَا تَرَدَّدَ فِي إِهْلَاكِي، وَالْقَضَاءِ عَلَيِّي.

**بطرس:** لَنْ يَعْرِفَ الْقَيْصِرُ — مِنْ قِصَّتِكَ — أَكْثَرُ مِمَّا يَعْرِفُهُ الْآنُ، وَمَا أَظْنُكَ قَادِرًا عَلَى إِكْتْمَانِ سِرِّكَ طَوِيلًا؛ فَإِنَّ لَهُ — فِيمَا أَعْلَمُ — أُسْلُوبًا عَجِيبًا فِي تَعْرِفِ الْأَسْرَارِ الْحَافِيَّةِ مَهْمَا تُحْجَبُ عَنْهُ ... وَمَا أَظْنُ شَيْئًا — مَهْمَا يَدْقُ — يَخْفَى عَلَيْهِ ... يَا لَهُ مِنْ رَجُلٍ شَدِيدٍ، قَاسِيِ الْقَلْبِ! وَلَيْسَ أَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ مِنْ هَذَا الْقَانُونِ الْجَائِرِ الَّذِي أَصْدَرَهُ فَحَتَّمَ عَلَى كُلِّ هَارِبِ مِنَ الْجُنْدِيَّةِ — مِنْ أَمْثَالِكَ — أَنْ يُقْتَلُ رَمِيًّا بِالرَّاصِصِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَجْنِي ذُنْبًا أَوْ يَقْتَرَفَ إِنْثِماً، فَلَيْسَ عَلَيْكِ مِنْ حَرَاجٍ — فِيمَا أَرَى — إِذَا كُنْتَ بِطَبِيعَتِكَ لَا تَصْلُحُ لِلْجُنْدِيَّةِ، وَلَا تُؤَهِّلُكَ مَزَايَاكَ لِلأنِيماجِ فِي سِلْكِهَا ...

ميكانيل: حَذَارٌ أَنْ تَذَمَّ الْقَيْصَرَ أَمَامِي ... فَإِنَّ لَهُ فِي قَلْبِي مَكَانَةً إِلَكْبَارٍ وَالْإِجْلَالِ،  
وَلَيْسَ أَحَبَّ إِلَى قَلْبِي مِنَ الْفَتَكِ بِكُلِّ مَا تُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ بِأَغْتِيَابِهِ أَوْ نَفْدِهِ، وَلَئِنْ عَجَزْتُ عَنْ  
خِدْمَتِهِ جُنْدِيًّا مُحَارِبًا، لَقَدْ تَمَنَّيْتُ لَوْ أُتَيَحَ لِي السَّبِيلُ إِلَى خِدْمَتِهِ صَانِعًا أَوْ عَامِلًا ... وَإِنِّي  
لَا نَصْرُهُ وَأَخْلُصُ لَهُ مِنْ كُلِّ قَلْبِي، وَلَا أَدَّخِرُ فِي نُصْرَتِهِ أَيَّ جَهَدٍ مِنْ جُهُودِي ... إِنَّ قُوَّايَ  
وَرُوحِي وَمَوَاهِبِي كَلَّا هَا طَوْعًا أَمْرِهِ، وَرَهْنٌ إِشَارَتِهِ؛ فَهُوَ قَبْلَةُ الْوَطَنِ وَحَامِيَهُ، وَرَافِعُ لَوَائِهِ  
وَرَمْزُ أَمَانِيَهُ ... لَا تَغْضِبْ أَيُّهَا الرَّفِيقُ الْقَدِيمُ! فَلَسْتُ قَادِرًا عَلَى كِتْمَانِ هَذَا الشَّعُورِ النَّبِيلِ،  
وَلَقَدْ جَاهَرْتُكَ بِدِخْلَتِي، وَأَفْضَيْتُ إِلَيْكَ — مِنْ دُونِ النَّاسِ جَمِيعًا — بِسَرِّي الدَّفِينِ الَّذِي  
لَمْ أُطْلِعْ عَلَيْهِ كَائِنًا كَانَ.

بطرس: أَخْلَدْتُ إِلَيَّ بِكُلِّ ثَقِيلَكَ؛ فلنْ أَخُونَكَ قَطُّ ... وَمَنْ يَدْرِي؟ — أَيُّهَا الصَّدِيقُ الْكَرِيمُ  
— فَلَعْلَّ الْمُسْتَقْبَلَ يُحَقِّقُ لَكَ صِدْقَ ما أَقُولُ، وَرَبِّما اسْتَطَعْتُ — إِذَا أُتَيْتُ لِي فَرْصَةً فِي  
قَابِلِ أَيَامِي — أَنْ أُثْبِتَ لَكَ صَدَقَ وَلَائِي وَإِخْلَاصِي ...!

## الفصل الثاني

(منظر كوخ في مدينة «موسكو» فيه «ميكانيل» وأمه.)

أم ميكائيل: ماذا يا ميكائيل؟ أليس لك مندوحة عن مغادرتنا - مرة أخرى - بهذه السرعة؟

ميكانيل: لا سبيل إلى البقاء بحوارك يا أمي ... لقد لبست زمانا طويلا في هذا البلد على ما يكتنفي من أهوال ومخاطر ... وإنني لا شعر أن حياتي مهددة في كل لحظة ... ولا تنسى أنني - على فرض نجاتي من الخطير المحدق بي هنا - سأخسر عملي الذي أقتات منه في «سدام» إذا لم أسرع بالعوده من فوري ... ومتى طردت من العمل، فقدت أمالى كلها في المستقبل، وما أظنك تجهلين أنني قد فررت من الجندية التي لا أصلح لها - بعد أن اضطررت إلى الاندماج في سلوكها اضطرارا - والآن وقد احترفت النجارة، ووُفقت إلى هذا العمل الحرّ، وشعرت بنعمة الاستقلال، لا أرى أن سعادتي تتعم إلا إذا رافقتنـي - أنت - و«كترين» إلى محل عملـي في «سدام» حيث تدبـران لي مـرتبـي، ونعمـيش عـيشـة رـغـدا هـنـيـة.

أم ميكائيل: ليـتـ هذا الأـمـلـ يـتحقـقـ، ولـكـ كـيفـ السـبـيلـ إـلـيـ ذـلـكـ؟ إـنـهـ حـلـمـ لاـ سـبـيلـ إـلـيـ تـحـقـيقـ، فـقـدـ بـلـغـ بـيـ الـكـبـرـ كـلـ مـبـلـغـ، وـأـقـعـدـتـنـيـ الشـيـخـوـخـةـ عـنـ السـيـرـ وـالـحـرـكـةـ، وـلـيـسـ فيـ قـدـرـتـيـ أـنـ أـغـادـرـ وـطـنـيـ بـعـدـ أـنـ بـلـغـ هـذـهـ السـنـ؛ أـمـاـ مـرـتـبـكـ، فـمـاـ أـظـنـ أـنـهـ يـفـيـ بـنـفـقـاتـ مـخـطـوبـتـكـ «كتـرينـ»ـ فيـ بـلـادـ الـغـربـةـ.



أم ميكائيل تحدثه، وهما في البيت، وقد ظهر على وجهها الألم لفراقه.

ميكائيل: ذلك حق لا ريب فيه — يا أمي — وهذا هو ما يضطرني إلى الإسراع بالعودـة — من فوري — حتى لا أفقـد وظيفـتي هناك، ومـهما يكنـ من أمرـ، فإـنـي أـشـعـرـ أنـ الخـطـرـ يـكـتـفـيـ فيـ هـذـاـ الـبـلـدـ، وـأـنـيـ أـعـرـضـ حـيـاتـيـ لـلـمـوـتـ، إـذـاـ بـقـيـتـ هـنـاـ بـعـدـ الـيـوـمـ.

(يسمعان قرعـاـ بـالـبـابـ.)

ميكائيل: آه! شـدـ ما تـدـعـرـنـيـ كـلـ حـرـكـةـ، وـتـخـيـفـنـيـ كـلـ دـقـقـةـ عـلـىـ الـبـابـ ... أـنـاـ يـاـ أمـيـ! وـتـرـيـيـشـيـ فـيـ فـتـحـ الـبـابـ حتـىـ أـخـبـئـ ...

(يدخل «بطرس» الأكبر مسرـعاـ.)

**بطرس:** أُخْرُجِ مِنْ مَكْمَنِكَ أَيْهَا الرَّفِيقُ الْقَدِيمُ.  
لَا تُخْفِ نَفْسَكَ عَنِّي، فَقُدْ رَأَيْتُكَ مِنْ خِلَالِ النَّافِذَةِ! أُخْرُجِ أَيْهَا الصَّدِيقُ، فَمَا أَجْدَرَكَ  
إِلَّا تَخْشَانِي!

**ميكانيل:** مَرْحِبًا بِكَ يَا بُطْرُسُ ... مَاذَا أَرَى؟ أَتَرَانِي مُتَثَبِّتاً مِمَّا أَرَى؟ ... أَلسْتُ  
حَالَمًا؟ شَدَّ مَا يَبْهِجُنِي، وَيَمْلأُ نَفْسِي غِبْطَةً وَسُرُورًا أَنْ أَرَاكَ ثَانِيًّا يَا بُطْرُسُ ... وَلَكِنْ  
خَبْرُنِي: كَيْفَ جِئْتَ إِلَى «موسُكُو»، ذَلِكَ الْبَلْدُ الْقَارِيُّ وَلَيْسَ فِيهِ مَصَانِعٌ لِبَنَاءِ السُّفَنِ؟ وَأَيُّ  
عَمَلٍ تَزاولُهُ فِي هَذَا الْبَلْدِ؟

**بطرس:** صَدَقْتَ، وَلَكِنْ إِلَّا تَعْلَمُ أَنَّ الْمَصَانِعَ قَدْ أَنْشَئْتَ فِي مَدِينَةِ «بطرس»؟ لَقِدْ  
اعْتَزَمَ الْقِيَصُّرُ أَنْ يُنْشِئَ مَدِينَةً «بُطْرُسْبَرْجَ» هَذِهِ، وَهُوَ جَادٌ فِي إِنْشَائِهَا وَتَعْمِيرِهَا، إِلَّا تَعْلَمُ  
ذَلِكَ؟

**ميكانيل:** يَقُولُونَ إِنَّ الْقِيَصُّرَ فِي «مُوسُكُو» الْآنَ!  
**بطرس:** نَعَمْ، وَقَدْ مَرَ — فِي هَذَا الصَّبَاحِ — مِنْ هَذَا الشَّارِعِ الَّذِي تَقْطُنُهُ.  
**ميكانيل:** هَكَذَا سَمِعْتُ، وَلَكِنِّي لَمْ أَرُهُ ... عَلَى أَنَّ عَجَبِي لَا يَزَالُ شَدِيدًا مِنْ اهْتِدَائِكَ  
إِلَى مَسْكَنِي، فَكَيْفَ عَرَفْتَهُ يَا صَاحِ؟

**بطرس:** الْأَمْرُ غَايَةٌ فِي الْيُسُرِّ، فَقَدْ حَانَتْ مِنِّي التِّقَاتُهُ إِلَى اسْمِ أُمِّكَ الْمُكْتَوِبِ عَلَى  
الْبَابِ، فَقَرَأْتُهُ عَرَضًا، ثُمَّ حَطَرَ بِبَالِي بَعْدَ أَنْ عُدْتُ إِلَى الْقَصْرِ ...  
**ميكانيل:** الْقَصْرُ! ... أَيَّ قَصْرٍ تَعْنِي؟

**بطرس:** نَعَمْ! نَعَمْ! إِنِّي أَسْمَى الْمَكَانَ الَّذِي أَحْلُلُ فِيهِ قَصْرًا، وَهِيَ عَادَةُ الْفَتُوحِ،  
وَاعْتَدَنِهَا دَائِمًا!

**ميكانيل:** مَا أَغْرَبَ أَطْوَارَكَ! وَأَعْجَبَ عَادَاتِكَ يَا بُطْرُسُ!  
**بطرس:** لَنْ نَعْدُ إِلَى حَدِيثِنَا الْأَوَّلِ ... قُلْتُ لَكَ: إِنِّي — بَعْدَ أَنْ عُدْتُ إِلَى الْقَصْرِ — حَطَرَ  
بِبَالِي أَنَّ السَّيِّدَةَ «سِتِنْمَتْر» قَدْ تَكُونُ أُمَّ رَفِيقِي الْقَدِيمِ «مِيكانيل سِتِنْمَتْر» أَوْ عَمَّنْهُ، أَوْ  
إِحْدَى قَرِيبَاتِهِ ... وَلَمْ تَكُنْ تَقْرُ في نَفْسِي هَذِهِ الْفَكْرَةُ، حَتَّى خَرَجْتُ مُسْتُخْفِيًّا فِي هَذَا الرَّيْ.  
**ميكانيل:** هَا! هَا! هَا! تَسْتَخْفِي فِي زِيَ الْوُجَاهَاءِ وَالسَّادَةِ! حَبْرُنِي: كَيْفَ ظَفِرْتَ بِهِذِهِ  
الْخُلُلِ الْبَدِيعَةِ؟



بطرس الأكبر بملابس الفخمة، وهو في بيت ميكائيل يحده، وإلى جانبهما أم ميكائيل، مصغية إلى حوارهما.

**بطرس (محتنًا): لا تُقاطعني يا أخي!**

**ميكائيل:** ما أَغْرِبَ هَذِهِ الْلَّهَجَةِ الْحَادَّةِ الَّتِي تُخَاطِبُ بِهَا رَفِيقَكَ الْقَدِيمَ! وَلَكِنْ لَا إِنْمَاعٍ عَلَيْكَ وَلَا شَرِيبٍ، فَإِنِّي عَلَى ثِقَةٍ مِنْ حُسْنِ نِيَّتِكَ يَا بُطْرُسُ، وَإِنِّي لَا شُكُّرُ لَكَ — عَلَى كُلِّ حَالٍ — عِنْيَاتِكَ بِي، وَجَرْصَكَ عَلَى تَعْرُفِ أَخْبَارِي.

**بطرس:** آه يا ميكائيل! ما كانَ أَسْعَدَنَا فِي ثُلُكَ الْأَيَّامِ الْبَهِيجَةِ الَّتِي قَضَيْنَاها فِي «سردام»، إِذْ كَانَ نَشْقُ الْخَشَبَ مَعًا، لِنَبْنِي بِهَا السُّفْنَ فِي أَيَّامِ الصَّيْفِ الطَّوِيلَةِ، حَيْثُ نَقْضِي أَجْمَلَ السَّاعَاتِ فِي سَاحَةِ بَنَاءِ السُّفْنِ الْفِسيْحَةِ.

**ميكائيل:** ما أَيْسَرَ تَحْقِيقَ هَذَا الْأَمْلِ — يَا بُطْرُسُ — إِذَا رَضِيَتَ أَنْ تَعُودَ معي إِلَى «سردام».

ما زَالَ عَلَيْكَ إِذَا رَافَقْتَنِي إِلَى هُنَاكَ؟

**بطرس: كيف جرّقت على الرُّجوع إلى وطنك يا ميكائيل؟**

**ميكائيل:** لَمْ أُطِقْ صَبَرًا عَلَى بِعَادِ أُمَّيَ الْعَجُوزِ الْوَاجِدَةِ إِلَى لُقْيَايِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ مَخْطُوبِي «كُتْرِينَ» تَنْتَظِرُ عَوْدِي بِفَارَغِ الصَّبَرِ ... آه! لِيَتِنِي لَمْ أَكُنْ فَقِيرًا مُعْدِمًا ... وَلَكِنْ صَبَرًا، فَإِنَّ الْحَظَّ - فِيمَا أَمْلُ - مُبْتَسِمٌ لِي، فِي نِهايَةِ الْعَامِ الْقَابِلِ ... آه! لِيَتِهَا تَتَحَقَّقُ الْآمَالُ، وَيَجْتَمِعُ شَمَلُنَا فِي «سُرْدَامَ».

**بطرس:** إِنَّ فِي قُدْرَتِي أَنْ أَحْصُلَ الآنَ عَلَى مَبْلَغٍ كَبِيرٍ مِنَ الْمَالِ إِذَا أَفْضَيْتُ إِلَى الْحُكُومَةِ بِالسُّرُّ، وَأَرْشَدْنَاهَا إِلَى صَدِيقِي الْهَارِبِ مِنَ الْجُنْدِيَّةِ!

**ميكائيل:** بِرَبِّكَ لَا تُزْعِجْنِي بِمِثْلِ هَذَا الْمُزَاحِ الْمُفَزَّعِ، إِنِّي لَعَلَى يَقِينٍ مِنْ حُسْنِ نِيَّتِكَ، فَلَأَسْتَ تَقْصِدُ إِلَى شَيْءٍ - فِيمَا أَعْلَمُ - غَيْرُ الدُّعَابَةِ؛ وَلَكِنْ ذَلِكَ - عَلَى كُلِّ حَالٍ - يُزْعِجُ أُمَّيَ وَيُخِيفُهَا ... فَلَدْنَاعِ الْمُزَاحِ جَانِبًا، وَلَنُأْخُذُ فِي حَدِيثِنَا الْأَوَّلِ ... لَقَدْ سَعَدْتُ بِلُقْيَاكَ أَيُّهَا الْأَخْ العَزِيزُ، وَلَكِنِّي مُضْطَرٌ - عَلَى كُلِّ حَالٍ - إِلَى مُغَارَةِ «موسَكُو»، فَهَلْ مِنْ رِسَالَةٍ تُرِيدُ أَنْ تُحَمِّلِنِي إِلَى أَحَدِ رِفَاقِ الْقَدَماءِ؟

(يسمع الباب وهو يُقرع بشدة، فيوصوس ميكائيل من خلال النافذة.)

**ميكائيل:** آه! واه! يا للهول! جُنُودُ يُحِيطُونَ بِالْبَيْتِ، وَضَابِطٌ يَتَقدَّمُهُمْ! أَيُّ مَعْنَى لِهَذَا؟ وَأَيُّ كَارِثَةٍ حَلَّتْ بِنَا يَا بَطْرُس؟ مَا أَجْدَرَنِي بِالْأَخْتِبَاءِ! فَلَا تَرْتَعِ لِذَلِكَ يَا بُطْرُس، فَإِنِّي أَحْشَى أَنْ تَقْعَ أَبْصَارُهُمْ عَلَيَّ.

**بطرس:** إِلَيْتُ مَكَانَكَ يَا صَاحِ، وَلَا يُقْلَعَنَّ بِالْكَ، فَإِنِّي أُثْبِتُ لَكَ أَنَّهُمْ قَادِمُونَ إِلَيَّ وَحْدِي، وَلَنْ يَعْنِيَهُمْ مِنْ أَمْرِكَ شَيْءٌ، قَرَّ عَيْنَا - يَا ميكائيل - فَإِنَّهُمْ رِفَاقي، وَلَنْ يَمْسَكَ أَكْدُّ مِنْهُمْ بِسُوءٍ.

**ميكائيل:** لَكَ مَا تُرِيدُ يَا أَخِي ... وَلَكِنْ أَلَا تَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَ هُؤُلَاءِ الرِّفَاقِ شَدِيدُ الشَّبَهِ بِذَلِكَ الضَّابِطِ الْقَدِيمِ، الَّذِي فَرَرْتُ مِنْ فِرْقَتِهِ؟

(يدخل الضابط.)

**الضابط:** لَقْدْ جِئْتُ بِرِسَالَةٍ حَاطِيَّةٍ مِنْ «بطرسبرج»؟ وَهِيَ جَدِيرَةٌ بِعِنَايَةِ جَلَالِتِكُمْ.

**ميكايل:** جَلَالِتُكُمْ! تَرَى مَاذَا يَعْنِيهِ، يَا بُطْرُس، بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ الْغَرِيبَةِ؟

**الضابط:** رُوكُوعًا يَا هَذَا، رُوكُوعًا أَيُّهَا الرَّجُلُ ... أَلَا تَعْلَمُ حَقِيقَةً مِنْ تُخَاطِبُ؟ ... رُوكُوعًا عَلَى قَدَمَيْكَ إِجْلَالًا لِبَطْرُسِ الْأَكْبَرِ: قَيْصِرِ رُوسِيَا الْعَظِيمِ.

**أم ميكايل** (تخر راكعة على قدميها): يَا صَاحِبَ الْجَلَالِةِ!! أَغْفِرْ لِوَلَدِي، وَاصْفَحْ عَنْ وَحِيدِي، فَإِنَّهُ لَا يَعْرُفُ مَا يَقُولُ!

**ميكايل:** هَذَا سُخْفٌ وَهُرَاءُ، إِنَّهَا إِحْدَى أَضَاحِيكِ بَطْرُس يَا أَمَاهَا، هَا! هَا! سَجْلَهُ هَذِهِ الْفُكَاهَةِ يَا بُطْرُس؛ فَإِنَّهَا غَايَةٌ فِي الظُّرْفِ!

**الضابط:** تَبَّنَّهُ أَيُّهَا الشَّرِيرُ الْجَرِيءُ ... دَعْنِي أَتَبَيِّنَ مَلَامِحَكَ بِدِقَّةٍ، فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُكَ — فِيمَا أَطْنَ — قَبْلَ هَذِهِ الْمَرَّةِ، الآنَ عَرَفْتُكَ أَيُّهَا الْهَارِبِ مِنَ الْجُنْدِيَّةِ، هَلْمُوا فَاقْبِضُوا عَلَيْهِ أَيُّهَا الْجُنْدِ!

**ميكايل** (تعلوه ألمات اليأس): رَبَّاهُ! أَيُّ مُفَاجَأَةٍ هَذِهِ! لَقْدْ قُضِيَ الْأَمْرُ فِيَّ، وَتَمَّ هَلَكِي، فَارْحَمْنِي يَا إِلَهِي! آه ... بُطْرُس! النَّجْدَةِ يَا بُطْرُس! أَلَا تُنْقُذْ رَفِيقَ الْقَدِيمِ؟ مَا بِالْكُ مَشْغُولًا بِالْقِرَاءَةِ عَنْ صَدِيقِكَ التَّاعِسِ الْمِسْكِينِ!

**أم ميكايل** (تلوح بيديها حزناً): آه! رُحْمَانَكَ أَيُّهَا الضَّابِطُ الْكَرِيمُ! أَبْقِ لِي حِيَاةً ولَدِي الْمِسْكِينِ!

**الضابط:** كَلَّا، لَا سَبِيلَ إِلَى تَرْكِهِ، وَلَا بُدَّ مِنْ مُحاكَمَتِهِ أَمَامَ الْمَحْكَمَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ، لِتَأْمُرَ بِقَتْلِهِ رَمِيًّا بِالرَّصَاصِ!

**بطرس** (يتحول عينه عن قراءة الرسالة، ويلتفت إلى الحاضرين فجأة): أَطْلِقْ سَرَاحَهُ أَيُّهَا الضَّابِطُ؛ فَإِنِّي فِي حَاجَةٍ إِلَى سَجِينَكَ هَذَا!

**الضابط:** إِنَّ إِرَادَةَ جَلَالِتِكُمْ مُطَاعَةً مُقْدَسَةً، لَا مَرَدَ لَهَا!

**ميكايل** (ينتحي جانبًا): إِنَّهُ يَقُولُ لُهُ: «جَلَالِتُكُمْ» مَرَّةً أُخْرَى، فَأَيُّ مَعْنَى لَهُذِهِ الْأَحَاجِيِّ وَالْأَلْغَازِ؟ آه! لَقْدْ بَدَأَتِ الْحَقِيقَةُ تَتَحَلَّ أَمَامَ عَيْنَيِّ ... فَقَدْ سَمِعْتُ شَائِعَةً مُسْتَقِيَّةً فِي «هُولَنْدَا» — حِينَ غَادَرْتُهَا — تُشَبِّهُ لَنَا أَنَّ قَيْصِرَ الرُّوسِيَا كَانَ يَشْتَغِلُ عَالِمًا مَعْنَا لِيَتَعَلَّمَ فَنَّ بَنَاءَ السُّفُونِ! فَهُلْ صَدَقْتُ هَذِهِ الشَّائِعَةَ؟ لَيْسَ صَحَّتْ ظُنُونِي لِيَكُونَ رَفِيقِي الْقَدِيمُ هُوَ الْإِمْبَراطُورُ الْعَظِيمِ!



بطرس الأَكْبَر يقرأ كتاباً أَعْطَاه إِيَاه ضابطٌ من حرسه قدم عليه به، ومِيكائِيل يلوح بيدِه لِيُسْتَعْطِفَ القيصر، وَالقيصر مُشغولٌ عَنْ ضراعته بِقِرَاءَةِ هَذَا الْكِتَابِ، وَأَمِيكائِيل مُرْتَمِيةٌ عَلَى قدمِي القيصر، تُسْتَعْطِفُه لِيَرْحُمَ ولَدَه.

بطرس: الآن اهتَدَيْتَ إِلَى سِرِّي، وَعَرَفْتَ حَقِيقَةَ أَمْرِي يَا مِيكائِيل.  
مِيكائِيل: إِذْنَ، أَعْنِقُدُ أَنَّكَ الـ ... (يرتمي ميكائيل على أقدام القيصر).  
بطرس: لَا عَلَيْكَ يَا صَدِيقِي الْحَمِيمِ! انْهَضْ، وَلَا تَخْشَ شَيْئاً ... انْهَضْ يَأْتِيهَا الْأُمْ العَجُوزُ، فَقَدْ أَصْبَحَ ولدُكِ الْبَارُون «مِيكائِيل» آمَنَّا نَاجِيَا مِنْ كُلِّ سُوءِ!  
مِيكائِيل (مد هوشاً ذاهلاً): الْبَارُون «مِيكائِيل»!  
بطرس: نَعَمْ، فَإِنِّي في حاجَةٍ إِلَيْكَ، وَقَدْ أَمَرْتُ بِتَعْبِينِكَ رَئِيساً لِمَصْنَعِ «بَطْرَسْبَرْج» الَّذِي أَنْشَأْتَه لِبِنَاءِ السُّفُنِ، وَإِنِّي أَحْتَمُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَاهَبَ لِلسَّافِرِ – مِنْ قُورِكَ – إِلَى هَذِهِ الْمَدِينَةِ الْجَدِيدَةِ، فَلَتَذَهَّبَ غَدَّاً مَعَ أُمِّكَ العَجُوزِ وَخِطْبِكَ الْبَارُونَةَ «كَتْرِينَ» ... صَهْ! ... لَسْتُ أُرِيدُ مِنْكَ شُكْرًا يَا صَدِيقِي ... إِنَّ أَعْمَالًا خَطِيرَةً تَسْتَدِعِينِي لِإِنجازِهَا عَلَى عَجَلٍ،

ولو لَهَا لَحَضْرَتُ عُرْسَكَ بِنَفْسِي ... هَاهُوكَ صُرَّةً مِنَ الْمَالِ، وَسَأَبْعَثُ إِلَيْكَ بِمَرْسُومِ التَّعْيِنِ فِي  
وَظِيفَتِكَ الْجَدِيدَةِ فِي صَبَاحِ الْغَدِ ...  
وَدَاعًا أَيْهَا الصَّدِيقُ ...!

ميكانيل: آه ... بُطْرُسُ! بُطْرُسُ! عَفْوًا! عَفْوًا! أُرِيدُ أَنْ أَقُولَ: «جَلَالُكُمْ! جَلَالُكُمْ!»  
آه! مَا أَشَدَ حَيْرَتِي وَذُهُولِي! فَمَا أَعْرِفُ كِيفَ أَقُولُ؟ وَلَا بِأَيِّ وَسِيلَةٍ أَعْبَرُ عَنْ شُكُرِي لَهُ،  
وَإِخْلَاصِي لِجَلَالِتِهِ؟ ... آه! اغْفِرْ لِي جَهْلِي وَغَبَائِي، وَتَجَاوزْ عَنْ بَلَاهَتِي وَعَيْيِي، وَتَفَضَّلْ  
بِقَبُولِ شُكُرِي لَكَ يَا صَاحِبَ الْجَلَالِةِ! سَامِحْنِي يَا صَدِيقِي بُطْرُسُ ... آه! مَا أَرَانِي إِلَّا  
حَالًا بِلَا شَكٌ!

بطرس: ها! ها! إِلَى الْلَّقَاءِ الْقَرِيبِ يَا رَفِيقِي الْقَدِيمِ ... سَأَلْقاكَ بَعْدَ أَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ ...  
بَلْغُ «كَتْرِينَ» تَحِيَّاتِي الْخَالِصَةَ!

(يخرج بطرس.)

ميكانيل (مخاطبًا الضابط في سخرية وابتهاج): خَبَرْنِي — بِرَبِّكَ أَيْهَا الضَّابِطُ  
العزِيزُ: مَتَى تَجْتِمِعُ الْمَحْكَمَةُ الْعَسْكَرِيَّةُ لِمُحاكَمَتِي؟

الضابط: اغْفِرْ لِي خَطَئِي، وَتَجَاوزْ عَنْ إِسَاعَتِي يَا سَيِّدي الْبَارُونَ الْجَلِيلِ، وَلَا تَنْسَسْ  
أَنْ تَقُولَ عَنِّي كَلِمَةً طَبِيعَةً فِي حَضَرَةِ الْقَيْصِرِ، إِذَا أُتَيْحَتُ لَكَ فُرْصَةً سَانَحَةً!  
ميكانيل: أَيْنَ أَنْتِ يَا كَتْرِينَ! أَيْ حُلْمٍ لِذِيذِ سَاقُصَهُ عَلَيْكِ! لَقَدْ تَمَّ سَعَادَتِي،  
وَتَحَقَّقَتْ أَحْلَامِي! وَأَفْرَحَتَهُ!

## إِلَامَة

بطرس الأَكْبر

بطرس الأَكْبر هو أَعْظَمْ قِيَاصِرَةِ الْرُّوسِ وَأَوْلُ مَنْ نَهَضَ بِرُوسِيَا إِلَى مَصَافِ الدُّولِ الْعَظِيمَةِ، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ قَبْلَ حُكْمِهِ بِمَعْزُلٍ عَنْهَا.

وَرَثَ الْمُلْكَ وَسَنَهُ عَشَرَ سَنَوَاتٍ، فَأَقْيَمَتْ أَخْتَهُ وَصِيهَةً، وَلَا بَلَغَتْ سَنَهُ السَّابِعَةِ عَشَرَةَ، غَلَ يَدُهَا عَنِ الْحُكْمِ وَالْجَاهِ إِلَى دِيرٍ.

وَوَلَى بِنَفْسِهِ زَمامَ الْأَمْوَارِ، وَكَانَ فَطَنًا، قَوِيَّ الْإِرَادَةِ، كَثِيرُ الْاَطْلَاعِ عَلَى الْكُتُبِ التَّارِيَخِيَّةِ مِنْ ذِنْشَائِتَهُ، وَقَدْ تَعْلَمَ مِنَ الْلُّغَاتِ: الْأَلْمَانِيَّةِ وَالْلَّاتِينِيَّةِ وَالْفَلَمِنْكِيَّةِ.

وَخَالَطَ الْأَجَانِبَ وَاسْتَفَادَ مِنْهُمْ، وَعَرَفَ الْبُونَ الشَّاسِعَ بَيْنَ أُمَّتِهِ الْمَتَّخِرَةِ وَبِقِيَةِ الْمَالِكِ الْغَرْبِيَّةِ الَّتِي خَطَّتِ فِي الْحَضَارَةِ خَطُوطَ وَاسِعَةَ، فَبَذَلَ وَسْعَهُ فِي النَّهْوَضِ بِهَا، وَإِعْدَادِهَا لِلْمَكَانِ الْلَّائِقِ بِهَا بَيْنَ دُولِ أُورَبِيَا الْمُتَحَضَّرَةِ.

فَأَصْلَحَ الْجَيْشَ مُسْتَعِنًا عَلَى ذَلِكَ بِبَعْضِ الضَّبَاطِ الْغَرْبِيِّينَ، وَرَأَى وَجُوبَ زِيَارَةِ الْمَالِكِ الْغَرْبِيِّ، وَاقْتَبَاسَ كُلِّ مَا يَرَاهُ نَافِعًا لِبَلَادِهِ مِنْ حَضَارَتِهِ، وَأَدْرَكَ أَهْمَيَّةَ السُّفُنِ الْحَرْبِيَّةِ لِرُوسِيَا.

فَقَامَ بِنَفْسِهِ بِرْحَلَةٍ إِلَى مَالِكِ أُورَبِيَا لِيَتَعَلَّمَ صَنَاعَةَ السُّفُنِ وَكُلِّ مَا يَهْمِهِ مِنَ الْعِلُومِ وَالْفَنَّوْنِ، وَتَرَكَ مَكَانَهُ لِأَحَدِ الْأَشْرَافِ، وَيَمِّ هُولَنْدَا مُتَنَكِّرًا فِي زَيِّ الْعَمَالِ.

وَاشْتَغَلَ فِي مَصْنَعِ بَنَاءِ السُّفُنِ بِهُولَنْدَا كَعَامِلٍ بَسِيطٍ، وَكَانَ يَتَناولُ أَجْرَهُ كُلَّ أَسْبُوعٍ كَبِيقِيَّةِ الصُّنَاعِ الْآخَرِينَ، وَيَعِيشُ بَيْنَهُمْ كَمَا يَعِيشُونَ، وَيَقْطَنُ كُوكَّاً صَغِيرًا كَمَا يَقْطَنُونَ،

وبيهئ طعامه بيده كل يوم كما يفعلون، وكان يناديه زملاؤه باسم: المعلم البطريسي ميخائيلوف.

وكان مثال النشاط والدعوب، فادخر من أجره ثمناً لحذاء اشتراه لنفسه، وكان كثيراً ما يفخر به.

ولا يزال في مصنع بطرسبرج إلى اليوم قضيب حديدي من صنع يده. وزار لندن، ثم ذهب إلى قيينا؛ حيث تعلم فنون الحرب، ولما رجع إلى بلاده أخذ في تشييد القلاع، وتنظيم المدن، وترتيب الجيش، وأسس مدينة بطرسبرج على أحسن طرائز، وأخذ يناصر كل مشروع تلوح له فيه مصلحة بلاده.

وكانت إرادته الحديدية وبطشه أكبر معين له على تنفيذ مآربه، فقد قتل كل مناوئ للإصلاح بقسوة، وعاملهم بقلب لا تعرف الرحمة طريقاً إليه، واتخذ في معاقبتهم — من طريق التعذيب والنفي إلى سiberيا — وسيلة لنيل أغراضه. ولما انضم ابنه «ألكسيس» نفسه إلى الحزب المناوئ للإصلاح ورأى بطرس منه الجمود على القديم، والانتصار له، والتبرم بالنظم الجديدة، زج به في السجن وقتلته.

وكان قد بعث إليه برسالة قبل محاكمته يقول فيها تلك الكلمة الجليلة:

إذا كنت لا أضن ببذل حياتي في سبيل خير بلادي وسعادة شعبي، فكيف  
أستبقي حياتك؟

ولئن عدت قسوته نصراً في أخلاقه، لقد حمدت روسيا مغبتها، وكان لها أحسن الأثر فيها.

ولم يكن في الإمكان تغيير النظم البالية القديمة، وإدخال الإصلاح في روسيا، وصبغها بالصبغة الأوروبيّة إلا بطريق القسوة الشديدة والسلطة المطلقة، اللتين لجأ إليهما بطرس. وإليك ما قاله الكاتب الفرنسي المبدع «فولتير» في وصفه:

إن عبقرية بطرس الجبارة التي وقف في سبيل إظهارها التعليم الهمجي الذي تعلمه، وإن لم يستطع محقها — قد ظهرت فجاة تقريباً؛ فقد صمم على أن يكون رجلاً، وأن يهيمن على الناس، وعلى أن يخلق أمة جديدة.

ولقد نزل كثير من الأمراء عن تيجانهم من قبله، بسبب كراهيتهم لأعباء الملك وتكليفه، ولكن لم ينزل واحد منهم عن ملكه، ليتعلم كيف يحسن الحكم!

ذلك هو ما فعله «بطرس الأكبر»، غادر الروسيا عام «١٦٩٨» ولم يكن قد حكم بعد إلا عامين، وذهب إلى هولندا متنكراً تحت اسم من أسماء العامة، ووصل إلى أمستردام، وقيد اسمه بقائمة النجارين بديوان البحري، وهناك أخذ يعمل في المصنع كباقية النجارين.

وفي أثناء عمله تعلم من فروع الرياضة ما قد ينفع أميراً مثله، كفنون التحصينات والملاحة، وأخذ الرسوم، وقد فحص كل آلات المصنع، ولم يند عن ملاحظاته شيء.

ومن ثم ذهب إلى إنجلترا، حيث تزود من فن بناء السفن وتكميل فيه، ثم عاد ثانية فمر بهولندا، واهتم برأوية كل ما يعود على بلاده بالنفع، وعاد أخيراً إلى الروسي بعد عامين، قضاهما في السياحة والأعمال التي لم يتواضع إليها رجل غيره، وأحضر معه إلى بلاده جميع الحرف الأوربية.

هذه هي صفحة موجزة من تاريخ «بطرس الأكبر» الملك العظيم، وهي التي تهمنا الآن.

ونحن نجتاز بها عن صفحته الثانية الملأى بحروبه الكثيرة، التي كانت سبباً في تتميم نهضة الروسي الحقة.

وقد رأى القارئ في هذه القصة صورة موجزة لبطرس الأكبر وهو يشتغل في مصنع بناء السفن بهولندا الذي أسلفنا ذكره، وإنما آثر ذلك لكي يحذيه جميع أبناء الشعب، فلا يأنف واحد منهم أن يبدأ حياته بالاشغال في المهن المختلفة؛ مهما تكن حقارتها.